

الملكة شجرة الدر^(١)

٨

كانت تولية شجرة الدر الملك حركة جريئة ولكن خطيرة في نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ما عُرف عن الملكة الجديدة من أصالة في الرأي ، وقوة في الخلال ، ومقدرة في تدبير الشئون ، وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من جليل الخدمات ، وما أحرزته من نجاح في إجلاء الفرنج ، فإن فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء في مصر والشام لم يَرُقْ لهم أن يستظلوا بلواء امرأة ، وسرعان ما ظهرت بوادر الانتفاض الأولى في الشام حيث أبي نائب السلطنة في دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، وأرسلوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبي يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، فاستجاب لدعوتهم وقدم إلى دمشق وتسلمها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر . وكان لهذه الأنباء في بلاط القاهرة أعمق صدى ، فجدد الأمراء والماليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيبك ، وبادروا إلى تجهيز القوات لإرسالها إلى الشام ولكن شجرة الدر اخذت تشعر بحرج الموقف وبضعفها كأمراة ، ورأت أن تزوج من الأمير عز الدين أيبك فتقوى بذلك مركزها كملكة ، وتدعم عصمتها وهيبتها كأمراة ، وتم هذا الزواج بالفعل في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ . ولكن الظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها في تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقين . فعندئذ رأت شجرة الدر أن تُقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تقتدى سلام الملكة ووحدتها بذلك العرش الذي رُمعها القدر إليه ؛ فاتفقت مع الأمراء الماليك على أن تلخع نفسها ، وأن يتولى العرش

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) ، عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

مكانها زوجها الأمير عز الدين أيبك . ونفذ هذا المشروع في نهاية ربيع الثاني ، وجلس عز الدين أيبك على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ، ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عاشر صفر إلى آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى الماليك فوق ذلك إرضاءً لبني أيوب وتهديئة لثورتهم ، أن يضموا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل في نحو السادسة ، وأخذت له البيعة في اليوم الثالث من جمادى الأولى . وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم المملوكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتي : « رسم بالأمر العالي المولوى السلطاني الملكي الأشرفي والملكي المعزي » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ ثائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بني أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول عرش مصر على اضطرابها ، وسير الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر يحاول انتزاعها من الماليك . فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاي في قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشتت شملهم بالقرب من غزة ، وعاد إلى القاهرة ظافراً (٥ رجب ٦٤٨) . ولكن هذا الإخفاق لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواده مرة أخرى ، وسار بنفسه إلى مصر ، ومعه عدة من أمراء بني أيوب ، وذاع خبر مسيره في القاهرة ، فاضطربت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وأنصار بني أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاي للقاء المهاجرين ثم تبعه المعز في بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصالحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة ، رجحت فيها كفة الشاميين أولاً ، ولكن الماليك ثبتوا ودارت الدائرة في النهاية على الشاميين فهزموا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ، ووقع عدة من أمراء بني أيوب في الأسر ، وكان ذلك في أوائل ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزماً بفلوله إلى دمشق واعتصم بها . واستقر الملك المعز في ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه ، واستقرت الأمور نوعاً ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصه القوي الملك الناصر في سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز

بالبديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، ويستقل الناصر بما بقي من أراضي المملكة المصرية في الشام والمشرق ، وأفرج المعز عن أولاد الناصر ، وسائر الأمراء الأيوبيين المأسورين لديه ، وصفت العلائق نوعاً بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وزوجاً فقط ، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط . وكان المعز أميراً حاقلاً حصيف الرأي والخلال ، طاغية ظلوماً في الوقت نفسه ، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعته إلى الملك ، ويذعن لأمرها ووحياها ، وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحمي عرشه من كيد خصومه الأقوياء . وكان الملك المعز يعيش في توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه . وكان الخطر ماثلاً في الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء ، وفي مقدمتهم الأمير فارس الدين أقطاي وبيرس البندقداري وقلاوون الألفي ، يتربصون به ويتحدونه بلا انقطاع ؛ وكان فارس الدين أقطاي يتزعم هذه الكتيبة الخطرة من خصوم الملك المعز وبنائوه كلما سنحت الفرص ؛ وكان كلما قصد إلى القلعة سار إليها في موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن خطب فارس الدين أقطاي ابنة صاحب حماة ، وطلب إلى الملك المعز إسكانها في القلعة في جناح من القصر الملكي ، لأنها من سلالة ملوكية ، يخشى المعز عاقبة هذا الطلب ، وتظاهر بالموافقة عليه ، ولكنه اعترم في الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطير ؛ وبينما كانت العروس في طريقها إلى مصر في موكبها الفخم دبر الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين أقطاي ذات يوم إلى القلعة ، وأعد له في الوقت نفسه كميناً لقتله ، وجاء أقطاي إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجوز الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتل ، وفي مقدمتهم المملوك قطز الذي تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا برأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحمايته (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) . فلما رأى أعيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ، وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم ، وتفرق بذلك جمعهم ، وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

وعمد الملك المعز بعد ذلك إلى خلع الملك الأشرف موسى ، وهو الملك الطفل الذي أراد أن يتدرع بتوليته في وجه بني أيوب وأنزله من القلعة وردّه إلى منزله السابق بين أهله ، واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم . وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً ، ولاح له أنه أمن شر خصومه من البحرية بعد أن مزق جمعهم وحطم شوكتهم ، بيد أن الخطر كان يجثم في ناحية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور .

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هي الروح المسيطر على كل شيء في البلاط والدولة ، وكان الملك المعز يعاني من هذا الطغيان الأدبي المرهق ، ولا يرى سبيلاً للخلاص منه . وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهرة تحيish بكل ما تحيish به المرأة من صنوف الضعف والآهواء الخطرة ، وكانت قد جاوزت يومئذ طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت مع ذلك تضطرم بنار الغيرة المحرقة ، ولم يهدئ من ثورة غيرتها أنها أرغمت المعز غير بعيد على طلاق زوجه الأولى وأم ولده على ، ومنعته من زيارتهما أو الاتصال بهما^(١) بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة ، حتى غدا القصر وغدت الحياة المشتركة ، في نظر الملك المعز جحيم لا يطاق .

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر في ازدياد . ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدية فكر في أن يضع لها حداً ، واعتزم أن يختار له زوجة أخرى ، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته وكانت رائعة الحسن . ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود . وتحدثنا الرواية في هذا الصدد بأنه كان للملك المعز منجّم أخبره أنه سيموت قتيلاً على يد امرأة ، فلم يشك في أنها هي شجرة الدر ، وفكر في أن يكون البادئ بالفعل . ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه . وحدث حادث

(١) السلوك في دول الملوك ج ١ (٢) ص ٤٠١ .

ترتب عليه افتضاح المعز . ذلك أنه قبض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم في « الجب » وعلى رأسهم أيديكين الصالحى أحد غلمان الملك الصالح ، فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجرة الدر ، وكانت تجلس فيه عندئذ ، انحنى أيديكين احتراماً ، وصاح بالتركية « والله ياخوند ماعملنا ذنباً يوجب مسكنا ، ولكننا لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ماهان علينا لأجلك ؛ فإننا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترى » . فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه : « قد سمعت كلامك » . ولما زج أيديكين وزملاؤه إلى الجب قال لهم : « إن كان حبسنا فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سخطاً وكبرياء ، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها بدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص من زوجها الملك المعز فإنه سيعالجها بالتخلص منها .

وأرسلت شجرة الدر سرّاً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعترمت التخلص من الملك المعز ، وتعدّه بالزواج منه وتعليكه عرش مصر ؛ فلم يلتفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين ملك الموصل على هذا السر الرهيب ، فأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع زوجته وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ؛ فقد كان يشعر فى الواقع بالخطر الذى يترتب به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغلمانها أينما ذهب . وأخيراً اعزم أن يخرجها من القلعة مبالغة فى الاطمئنان ، وأن يسكنها فى دار الوزارة ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً فى مناظر اللوق بعيداً عنها يدبر أمره ويعد العدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من جانبها بأن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، وأنها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعها كله ؛ فلم تضع وقتاً ، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز فى مقامه باللوق تتلطف به ، وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والاخلاص . فما الذى جال بخاطرهن عندئذ ؟ وهل كانت ما تزال تجذبه نحو تلك المرأة الساحرة بقية من صباة الماضى ؟ وهل نسى عندئذ ما كان

يخالجه من ريب في نياتها الخطرة؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلي عن مشاريعها السوداء؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأماً من أن يستجيب لدعوة زوجه المغربية، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (١) وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم في لعب الكرة مع بعض خاصته، وما غربت الشمس حتى غادر المعز في ركبته ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً.

فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة بالغة، وغمرته بالابتسام والمداعبات، فاستسلم المعز إلى حناوتها الغادرة، ولم يتخذ لنفسه أى تحوط. وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها؛ وكانت قد ربت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العزيزي ومحسن الجوهري ومملوك يدعى سنجر وخادمان من ذوى البأس والشدة. فاستراح المعز قليلاً، ثم قصد إلى الحمام ليلاً ليغتسل وهو آمن مطمئن، ولكن ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر. وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة، فيقال إن القتلة أخذوا بأنثييه وخنقوه في نفس الوقت حتى زهق، وفي رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقباب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه. وتضيف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر بأنه هالك أخذ يستغيث بشجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه، وأن شجرة الدر تأثرت بتضرعه وطلبت إلى الغلمان أن يتركوه، فصاح بها محسن الجوهري مفضياً: «إذا تركناه فانه لا يبقى علينا ولا عليك». وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة بتدبير زوجته الغادرة الخؤون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين وكان قد أشرف على الستين من عمره (١٠ أبريل سنة ١٢٥٧ م). وبادرت شجرة الدر في الحال إلى العمل لاتقاء عواقب الجريمة، فأرسلت

(١) يقول لنا المقرئى إن ذلك اليوم وهو اليوم الذى قتل في مسائه الملك المعز كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السلوك ج ١ (٢) ص ٤٠٣) ويقول لنا أبو الفدا (ج ٣ ص ١٩٢) وكذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٧٥) إن ذلك كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول. وقد رأينا بعد مقارنة التواريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح.

ليلا إلى القاضي ابن مرزوق واستشارته في الأمر بعد أن نبأته بموت الملك المعز ، فاعتذر ولم يبد رأياً . وأرسلت في نفس الوقت تعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيبك الحلبي ، وجمال الدين العزيزي ، فلم يرضاها أحد منهم رهبة وروعاً . وهكذا أخفقت شجرة الدر في محاولتها أن تقيم على وجه السرعة في السلطنة أميراً تستر وراءه في الحكم . وأذيع في صباح اليوم التالي أن الملك المنزومات بالليل فجأة ، فحدث أيما هرج واضطراب ، ولم يصدق معظم الناس هذا النبأ ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب . وركب المماليك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفي مقدم الحلقة وحاصروا القصر ، وقبضوا على الخدم والحريم ، فافر بعضهم بحقيقة ما وقع . وفي الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفانزي ^(١) ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور على ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صبياً في نحو الخامسة عشرة ، ووافق الأمراء الصالحية على توليته انقضاء الفتنة ، وأخفقت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش وأراد الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر ، وكانت قد امتنعت بجناحها في القلعة مع نفر من خدما وجواريها ، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية ، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت مع بعض جواريها في البرج الأحمر لمنع أبراج القلعة يومئذ ، وكان يقع في الناحية الجنوبية منها ، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة ، وفي مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة ، ولم ينج منهم سوى نصر العزيزي الذي استطاع الفرار إلى الشام ، وقُتِل عدة كبيرة من الغلمان والطواشية ، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين حنّاً وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك في الجريمة ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل . وأما شرف الدين الفانزي فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفانزي ، وكان قبطياً فاسلم وتقدم في وظائف الدولة حتى ولى رئاسة الوزراء للملك المعز ، وولى الوزارة من بعده لولده المنصور أياماً قلائل ، ثم قبض عليه وتوفي قتيلاً في جادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ .

الجديد أياماً ، ثم قتل في سجنه بعد ذلك بقليل . وأحاطت المماليك المعزية بالقصر السلطاني ، ووضعوا أيديهم على جميع مافيهِ ، واقتسموا جوارى شجرة الدر ومتاعها ، وسادت في القصر والبلاط أسباب الذعر والإرجاف مدى حين .

١٠

ولبثت شجرة الدر في معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهي تعاني أمر ضروب التوجس والروع . وقد كانت بلا ريب تشعر بمصيرها المحتوم . وأى مصير كان ينتظرها سوى الموت في أعنف صورة ؟ ولم يك ثمة سبيل للقرار وأعين المماليك المعزية ترقبها بمنتهى الحذر . وكان المماليك المعزية يحشون هذه المرأة الخطرة بالرغم من محتنها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم في العرش والسلطة سوى إزالتها من الوجود . وكان الملك الفتى المنصور وأمه يضطربان ظمأً للانتقام من الزوج القاتلة . وهكذا كان القدر الصارم يتربص بشجرة الدر ويدنو منها سراعاً ، وكان الأمراء المعزية يتربصون الفرصة للعمل ويطالبون جهاراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما أئمت ، والمماليك الصالحية من جانبهم يحاولون إنقاذ شجرة الدر وحمايتها ، بيد أنهم كانوا الفريق الأضعف ، فلم تمض أيام قلائل حتى وهنت معارضتهم وانحنوا أمام العاصفة . وفي يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الثاني ^(١) نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر بأمر الملك المنصور وأمه ، وقبضوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المنصور لكي تتولى عقابها بنفسها . وهنا يقول لنا المقرئ : « فضرى الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق

(١) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت في تاريخ مقتل زوجها الملك المعز . فيقول لنا المقرئ إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعني بعد مقتل المعز بثلاثة أيام وفقاً لرواية (السلوك ج ١ - ٢ - ص ٤٠٤) . ويقول صاحب النجوم الزاهرة نقلاً عن أكثر من رواية إن مقتل شجرة الدر كان يوم السبت ١١ ربيع الثاني . وذلك لسبعة عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨) . ويقول أبو الفدا إنها قتلت في يوم ١٦ ربيع الثاني . ويقول ابن إياس إنها قتلت في يوم ٢٥ ربيع الثاني (ج ١ ص ٩٢) . وقد أخذنا نحن برواية صاحب النجوم الزاهرة باعتبارها أقوى وأرجح .

وليس عليها سوى سراويل وقميص ، فبقيت في الخندق أياماً ، وأخذ بعض أراذل العامة تكه سراوليها . ثم دفنت بعد — أيام وقد أنتنت وجملت في قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسى .^(١) وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت بهلاكها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق ذلك طائفة من الجواهر والحلى النفيسة وحطمتها وسحققتها في الهاون حتى لا يقع في أيدي أعدائها^(٢) .

وهكذا زهقت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التي لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصري ، وصاحبة الحول والسلطان فيه ، وزهقت بنفس الأسلوب المروّع الذي زهق به زوجها الملك المعز ، وكان القصاص مثيراً ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير من مأساة قصر متعددة الفصول والنواحي ، بدأت رائحة باهرة ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة . وكانت شجرة الدر ، بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة ، شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية . وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كمرأة وحظية ، تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع في حسناء وافرة السحر ؛ فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحرمة والحشمة ، تعيش في جو من

(١) دفنت شجرة الدر في التربة التي أنشأتها لنفسها قرب مشهد السيدة نفيسة في سنة ٦٤٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤) وما تزال هذه التربة قائمة حتى اليوم ، وهي توجد داخل مسجد صغير أصله مدرسة أنشأتها شجرة الدر بجوار تربتها بشارع الخليفة ، وتعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة . وعلى التربة قبة من طراز عباسي كتب في جنباتها ما يأتي :

«بسم الله الرحمن الرحيم . عز الست الرفيع والحجاب المنيع ، عصمة الدنيا والدين ، والددة الملك خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبي المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبي المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه ، التي خطبت الأقلام مناقبها على منابر الطروس ، وشهدت لها الفاخر بالمجد الثابت في أعلى العز بين الورى ، وأصبحت شمس الملكة بها طالعة ، وآراء الأسراء لأمرها مطبوعة وبسامعة ، وأعز الله أنصارها ، وضاعف اقتدارها ، وأعلى منارها ، وجمل النيرين في الملاء الأعلى خدامها ، ولم تزل مؤيدة منصوره على مر الليالي والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام » . (ورد هذا النص ضمن بحث عن العمارة الإسلامية في العصر الأيوبي للأستاذ حسن عبد الوهاب ونشر بمجلة العمارة عددى ٧-٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) السلوك ج ٢ ص ٤٠٤ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

المهابة والجلال ، ولم تكن فقط جارية القصر الاثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ولكنها كانت تسيطر أينما حلت بقوة عقلها وذكاؤها وروحها . وقد لبثت منذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرز شخصية في البلاط وفي الدولة ، يغلب رأيها كل رأى وتفوذها كل تفوذ . ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى ، لا عنوان الذروة في هذا المحد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصاب رأيها وثابت جناها وتوجيهها الجرىء أثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر في إنقاذ مصر من كارثة مروعة ، وتحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها القاهر حينما خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لبثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى فى تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف ، وأخذ يخبو نجمها المتألق ، أقدر من يسوس طوائف المماليك المتمردة ويهدى ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بخلال شخصية جليلة . فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة متينة الخلق ، وافرة العفاف والصون ، تقية خيرة ، تعشق أعمال البر وتقف عليها الكثير من ماله . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسفة .

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر حدث يافع ، هو ولده الملك المنصور على ، ولم يكن أصليح من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش . ومع ذلك فلم تهدأ الخواطر ولم تستقر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الزعماء على اضطرابها كانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها . وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو الشرق بسرعة ، وصروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تبعاً . وبلغ الخطر المروع ذورته حينما انقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقا

لاقتراب الخطر الداهم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر ؛ لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاجل ، وأخذت جيوش التتار تعبر الفرات متجهة نحو الشرق ، ولم يك ثمة شك في النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المخرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء .

ففي تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية في ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطة ويقوم للملك المنصور بتدبير شئون المملكة ، وكان يرقب سير الحوادث في المشرق بحزم ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر في هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانه ، فاتتهز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملكاً (٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) ، وأعلن إلى زملائه الأمراء في صراحة أنه لا ينبغي الملك لذاته ، ولكنه يريد التأهب لرد التتار وإنقاذ مصر من شرهم ؛ فإذا تم القضاء على هذا الخطر فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام في أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم . ولم تمض أشهر قلائل حتى سيطروا على سائر جنابات الشام ، ثم انسابوا نحو الجنوب بسرعة مدهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل . وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة في حشد الجند وإتمام الأبهة . فلما وصل رسل هلاكو أجاب قطز بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رؤوسهم على باب زويلة ، ثم سار من فوره على رأس قواته إلى فلسطين ، وبادر بقاء الغزاة في عزم وثقة . وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردهم جند مصر بقوة ، واشتبكوا معهم في معركة عظيمة حاسمة في عين جالوت على مقربة من بيسان ، وذلك في منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفي عين جالوت أحرزت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البرابرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام . ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المنظر

الملكة شجرة الدر

فطر أن يستخلص الشام من التتار ، وأزودهم نحو المشرق منهزمين مدحورين .
وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار ، كما كان لها من قبل فضل القضاء على
سيل الغزوات الصليبية ، وكانت في عين جالوت تقوم برسالها التاريخية في
حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

محمد عبد الله غنانه